- ٢٢ -

# يسوع الكرمة الحقيقية

**«أنا الكَرمَة الحقيقية وأبي الكَرَّام» (يو١٥:١)**

## تمهيد:

حينما أراد الربُّ أن يقدِّم لنا مثالًا رائعًا ومُعبِّرًا عن مقدار محبته لنا، وأنَّ علينا نحن أيضًا أن نتمَسَّك بهذا الحبِّ، ونثبت فيه، وذلك حسب قوله: «اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي» (يو ١٥: ٩)؛ فقد صوَّر لنا عظمة الربح الذي نجنيه من اتحادنا به وثباتنا في محبته، وذلك بأنْ شبَّه نفسه "**بالكرمة الحقيقية**"، حتى نُدرِك بوضوح وبساطة أنَّ كلَّ الذين يَتَّحدون به ويثبتون فيه، سيصيرون شركاء في مجده وفي طبيعته (انظر: ٢بط ١: ٤). وبسبب شركتهم في الروح القدس يصيرون أغصانًا مُثمِرة؛ لأنَّ الروح القدس سوف يوحِّدنا بالمسيح المخلِّص، لأنَّه سوف يأخذ ممَّا للمسيح ويُعطينا، كما شهد القديس كيرلس الإسكندري وقال: [بأنَّنا سوف نثبت فيه وهو فينا كثبوت الغصن في الكرمة، فننال مما للكرمة من كرامة البُنوَّة، ونصير خاصته، كقول الروح: «وأمَّا مَنْ التصَقَ بالربِّ فهو روح واحد» (انظر: ١كو ٦: ١٧)][(١)].

## ما بين الكَرمة الأولى والكَرمة الحقيقية:

أطلق الكتاب المقدَّس – في تشبيهاته – تعبير **الكرمة** ثلاث مرات، على مدار رحلة الوحي الإلهي؛ فقد استخدم هذا اللقب: **(الكرمة) أولًا**، على شعب إسرائيل، بصفته موضوع المشروع الإلهي الأول الذي أراده الله للإنسان، إذ كان إسرائيل هو مثال **الكرمة الأولى** التي غرسها الله ورعاها وسيَّج حولها، آملًا أن تصنع ثمرًا جيِّدًا يمجِّد اسمه بين الأمم، ولكن لم يحدث النجاح لهذا المشروع. أمَّا **المرَّة الثانية** التي استخدمها الروح في

(١) انظر شرح إنجيل يوحنا – ق. كيرلس الكبير – مركز دراسات الآباء، المجلد الثاني، ٢٠١٢، ص ٢٥٣ وما بعدها.

الكتاب المقدس في تسمية الكرمة؛ فكانت هي تعبير **(الكرمة الحقيقية)**، والتي لقَّبَ بها الربُّ يسوع نفسه، فصارت لقبًا هامًّا للمسيح. والكرمة الحقيقية هنا هي التي جاءت عوضًا عن الكرمة الأولى التي فسدت، فأتت لتُجدِّد عهد الحياة والنجاة والإثمار، وتبعث روح الحياة لمشروع الكرمة الحقيقية، في شخص ابن الله المتجسِّد. **والمرَّة الثالثة** التي استُخدم فيها تعبير الكرمة، فهو ما نُلقِّب به **الكنيسة؛** كجسد المسيح السرِّي، باعتبارها الامتداد الطبيعي لعمل المسيح ووجوده الفعلي بيننا حتى يوم مجيئه، **فالكنيسة هي الكرمة القائمة بيننا**، والممثِّلة لعمل المسيح في حياتنا المنظورة باعتبارها هي نفسها جسد المسيح السِّري، الذي نعاينه كلَّ يوم، ونغتذي برحيقه (من خلال ممارستنا لسرِّ الإفخارستيَّا)، الذي هو عصير الكرمة الحقيقية بذاته في هذا الدهر، إلى أن نشربه جديدًا مع الربِّ في ملكوته الآتي: (انظر: مت ٢٦: ٢٩).

**أولًا: الكرمة الأولى (شعب إسرائيل):**

كان شعب إسرائيل هو الكرمة الأولى التي غرسها الله قديمًا، مؤسِّسًا إيَّاها على أصول الحقِّ والإيمان والتَّقوى وحفظ الوصايا. وكانت هذه الكرمة الأولى موضع حبِّ الله وعنايته العظيمة؛ حتى إنَّه دعاها بالابن المحبوب، وترنَّم بذلك داود النبيِّ بقوله: «كرمة من مصر نَقَلْتَ. طَردتَ أممًا غرستها. هيَّأتَ قدَّامها فأصَّلت أصولها فملأت الأرض» (مز٨٠:٨،٩)، وأيضًا يقول النبيُّ هوشع: «لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلاَمًا أَحْبَبْتُهُ، وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي» (هو١١:١).

وتناهى حبُّ الله ورعايته لهذه الكرمة، فيقول عنها موسى النبيِّ أيضًا: «وَفِي الْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ رَأَيْتَ كَيْفَ حَمَلَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ كَمَا يَحْمِلُ الإِنْسَانُ ابْنَهُ فِي كُلِّ الطَّرِيقِ» (تث ١: ٣١)، وإشعياء النبيِّ كذلك يتغنَّى بمكانة هذه الكرمة، ومحبة الربِّ لها فيقول: «لأُنْشِدَنَّ عَنْ حَبِيبِي نَشِيدَ مُحِبِّي لِكَرْمِهِ: كَانَ لِحَبِيبِي كَرْمٌ عَلَى أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ، فَنَقَبَهُ وَنَقَّى حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَق، وَبَنَى بُرْجًا فِي وَسَطِهِ، وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضًا مِعْصَرَةً» (إش ٥: ١و٢)، ثمَّ يهتف النبيُّ أيضًا قائلًا: «غَنُّوا لِلْكَرْمَةِ الْمُشْتَهَاةِ: أَنَا الرَّبُّ حَارِسُهَا. أَسْقِيهَا كُلَّ لَحْظَةٍ. لِئَلاَّ يُوقَعَ بِهَا أَحْرُسُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا» (إش ٢٧: ٢ و٣).

ولكن، بكلِّ أسف لم يكن هذا الشعب (الكرمة الأولى) عند حُسنِ ظن غارسه، فسرعان ما تحوَّل عن سيِّده وربِّه، وابتعد بأفعاله الرديئة ومعاصيه عن الطريق الذي رسمه الله له، وأغاظ الربَّ الإله بعبادته آلهة غريبة، ولم تُفلِح مع هذا الشعب كلُّ محاولات الإصلاح والتطهير، ولا إعطاء المُخصِبات؛ بواسطة الأنبياء والأبرار الكثيرين المُرسَلين إليه؛ فتَلِفَتْ الكرمة الأولى، وأصابها الضعف والوَهَن، وصارت أثمارها مُرَّة كالعلقم، كما يشهد عن ذلك الروح في الكتاب المقدَّس بالقول: «مِنْ جَفْنَةِ (كرمة) سَدُومَ جَفْنَتَهُمْ، وَمِنْ كُرُومِ عَمُورَةَ. عِنَبُهُمْ عِنَبُ سَمٍّ، وَلَهُمْ عَنَاقِيدُ مَرَارَةٍ» (تث ٣٢: ٣٢-٣٤،٤٣)، ويقول عنهم أيضًا إشعياء النبيُّ: «احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي» (إش ٥: ٣). وهكذا تَوَقَّف مشروع الكرمة الأولى، ولم يُؤتِ ثماره المَرجُوَّة.

**ثانيًا: الكرمة الثانية: الكرمة الحقيقية (الابن المتجسِّد):**

عندما خَلقَ الربُّ الإله آدم (الإنسان الأول)، وضع له في وسط الفردوس شجرة الحياة، تلك التي كل من يأكل منها يحيا إلى الأبد. كما وضع له أيضًا معها شجرة معرفة الخير والشر، التي أوصاه ألَّا يأكل منها لئلَّا يموت، راسمًا له – في ذاته – الوقت المعيَّن الذي فيه يعطيه أن يأكل منها. وحينما يُبرهِن آدم على بلوغه ملء القامة والنضج الروحي الكامل؛ من خلال طاعته لوصية إلهه بالامتناع عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، يكون حينئذ أهلًا للأكل من شجرة الحياة، ويستحق أنْ يُستعلَن له مجدُ الآب ويحيا معه إلى الأبد. ذلك لأنَّ أكلَه من الشجرة سيعطيه سرَّ معرفة الله والحقِّ والخلود، فيحيا إلى الأبد. ولكنَّ آدم أكلَ قبل الوقت المعيَّن، وتعدَّى وصية الله؛ فانفتحت عيناه على معرفة الخير والشرِّ، دون أن يكون قد أدرَك بعد قوة التمييز بينهما؛ فانحاز إلى الشرِّ بغواية العدوِّ، لأنَّه أكلَ عن تعدٍّ للوصيَّة؛ فنال المعرفة المشوَّشة التي قادته إلى الشرِّ، لأنها معرفة غير مقدَّسة ولا ناضجة، ولا هي بحسب مشيئة الله وطاعته![٢] فسقط آدم واستحقَّ الموت، وفشل في اقتناء الحياة الأبدية مع الله، وتحقيق غاية الله من خلقته. ورتَّب الله

(٢) انظر الإنجيل بحسب القديس يوحنا - دراسة وتفسير وشرح - الأب متى المسكين ص ٨٩٤ وما بعدها. وانظر أيضًا نفس المرجع، الجزء الأول، ص ٤٦.

كَرمَته الأولى – إسرائيل المحبوب – ليغرسه كرمة أخرى بدلاً من شجرة الحياة التي كانت في الفردوس ولم ينتفع بها آدم شيئاً، إذ كسر وصية الله بالتَعدِّي، وأكل من الشجرة؛ فسقط وضاعت آماله في الحياة مع الله إلى الأبد. فالرب كان قد هيَّأ كلَّ عناصر النجاح والإثمار للكرمة الأولى – كما سبق القول – ولكن إسرائيل بكبريائه وعناده وخطاياه أتلَفَ مشروع الكرمة الأولى لله، وحكم على نفسه بالموت والهوان. لذلك أراد الله أن يستعيد ويُحيي مشروع كرمَته الجديدة، وتحقيق مشيئته التى ثبَّتها من نحو الإنسان، الخليقة التي أحبَّها ، وذلك بغرس كرمة حقيقية في فردوس جديد، تكون فيها هذه الكرمة شجرة حياة جديدة عوض الأولى، وهذه الكَرْمَة يمكن للإنسان أن يأكل منها ويحيا ولا يموت! وأعطى الربُّ لقب (الكرمة الحقيقية) لشجرة الحياة الجديدة ؛ وذلك بفم المسيح نفسه (راجع: يو ١٥:١)، وهكذا أعلن لنا الآب عن محبته للعالم إذ وهبنا الابن الوحيد – بالتجسُّد – وأرسله للعالم كشجرة حياة جديدة مغروسة، وككرمة خلاص وميناء نجاة، ودعانا لكي نقترب منه ونصير أغصاناً مغروسة فيه، نثبُت فيه وهو فينا، فتسرى فينا عصارة الحياة بالروح القدس، فننال منه الحياة الأبدية. وبدلاً من الوصيَّة الأولى ألاَّ نأكل فنموت؛ أُعطينا وصيَّة جديدة أن نتقدم لنأكل فنحيا، حسب قول الربِّ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ» (يو ٦: ٣٥)، وأيضاً قوله: «فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يو ٦: ٥٧)[٣].

إذن فقول الربِّ هنا: «**أنا الكرمة الحقيقية**» إنَّما يقصد به أنَّه كرمة غير كاذبة ولا مزيَّفة ولا ساقطة، مثل الكرمة الأولى (إسرائيل)، التي لم تستحِقْ أن تُدعَى كرمة الربِّ، لأنها زاغت وفسدت، وفقدت مصداقيتها وفاعليتها. فصار الابن الوحيد هو بذاته "الكرمة الحقيقية" القادر وحده على إنجاح مشروع شجرة الحياة الجديدة؛ وذلك برفع القدرات الطبيعية للإنسان، بالاشتراك معه في ضعفه: (بالتجسُّد) حتى يهبه كلَّ مجده، حسب القول: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له". فهو القادر وحده على جمع كلِّ أبناء الله المتفرِّقين إلى واحد، بغرسهم فيه (ككَرمة حقيقية)، فينالوا الحياة الأبدية، إذ إنَّ عصارة

(٣) المرجع السابق ص ٨٩٦.

الحياة المُتدفِّقة من الكرمة سوف تسري فيهم – بالروح القدس – فيحيوا ويُثمروا، ويتمُّ فيهم قول الربِّ: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو١٥:٥)[٤].

**معنى: أبي الكرَّام:**

يقول القديس كيرلس الكبير: [كما إنَّ الآب يعمل كلَّ الأشياء بالابن، وبدونه لا يمكن أن يعمل، لأنَّ الابن هو حكمته وقوَّته، لهذا السبب من الناحية الأخرى صرَّح الابن عن الآب أنَّه (أي الآب) هو الذي يعمل أعمال الابن، وذلك بقوله: «لست أفعل شيئًا من نفسي، لكنَّ الآب الحالُّ فيَّ هو يعمل الأعمال» (راجع: يو٨: ٢٨؛ يو ١٤: ١٠). لذلك، فإني أعتقد أنَّنا ينبغي أن نأخذ بهذا التفسير وليس سواه، أنَّ المسيح يأخذ مكان الكرمة في المَثلِ أمامنا، ونحن نعتمد عليه كأغصان فيه، إذ نغتني بنعمته، ونشرب بالروح قوة روحانية لنأتي بثمر][٥].

المسيح إذن، يُقدِّم نفسه لنا، ككَرمة حقيقية ذات مصدر إلهي سمائي، إذ يُظهِر الآب كرِاعٍ لهذه الكرمة، ويدعو الإنسان ليكون غُصنًا فيها، ويَثبت في الكرمة الإلهية كغصنٍ حيٍّ، على مثال وحدة الآب والابن، أو الكرمة والكرَّام!

ويشير الأب متى المسكين في إيضاح معنى "**أبي الكرَّام**"، فيقول: إنَّ الفهم الصحيح لمعنى «أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ» يتضِّح حينما نستوعب أنَّ الكلمة الأولى "أنا" تعني: "**أنا هو**"، التي هي اسم الله (يهوه الكائن منذ البدء)، فهو نفسه هو الذي يرعى ويطَّلِع ويحرس ويُدبِّر أمر خلاصنا، وهو نفسه المتحدِّث لنا في شخص ابنه (**الكرمة الحقيقية**)[٦]، لأنَّ عمل اللاهوت هو واحدٌ للأقانيم.

ونختم هنا بما قاله القديس كيرلس الكبير كذلك: [إنَّه بينما الابن يُغذِّينا ويُثبِّتنا في حالة كاملة بالروح القدس، فإنَّ تقويم حالتنا هو عمل الثالوث القدوس المساوي في الجوهر، والمشيئة والقوَّة لعمل كلِّ الأعمال التي يعملها الثالوث، هذه القوَّة كائنة في كلِّ

(٤) كتاب ألقاب المسيح – الأب متى المسكين ص ٢٣٨-٢٤٠.
(٥) شرح انجيل يوحنا – ق. كيرلس الكبير – مركز دراسات الآباء، المجلد الثاني، ٢٠١٢ ص ٢٥٦.
(٦) انظر: كتاب ألقاب المسيح - الأب متى المسكين. ص ٢٤٢.

الطبيعة الإلهية، لذلك نحن نُمجِّد الطبيعة الإلهية بكليّتها، ونُمجِّدها بقلبٍ واحد][٧].

**كيف نثبت في الكرمة؟:**

الثبات في الكرمة هو غايتُنا جميعًا، فبدون الثبات فيها سوف نَجفُّ ونُقطعْ، لذلك صار من الضروري واللازم علينا أن نُدرك ما هي الأمور أو الأشياء التي تُثبّتنا في الكَرمَة، والتي علينا أن نتشبَّث بها ولا نُرخِها. والحقيقة يوجد أمران عظيمان علينا أن نتمسَّك بهما إلى النفس الأخير، حيث يَكمُن فيهما سرُّ ثباتنا واتحادنا بأصل الكرمة الحقيقية والمحييَّة، وبدونهما تتعرض حياتنا للهلاك والموت. هذان الأمران هما:

**١. سرُّ الإفخارستيَّا**: قال يسوع لتلاميذه: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ... مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو ٦: ٥٣،٥٦)، وعند العشاء الأخير للربِّ قبل الفصح، أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ قائلًا: «خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي. وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا: اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ» (مت ٢٦: ٢٦-٢٧). فالربُّ قد وضع لنا المفتاح الأول والأعظم الذي به نثبُت فيه وهو فينا، بل ونَتَّحد به، كمثال الكرمة والأغصان، وذلك بالشركة في جسده ودمه الأقدسين. وإذ صارت الكنيسة هي الكرمة القائمة بيننا والحاملة كلَّ مفاعيل الخلاص التي للربِّ، لأنَّها هي بذاتها جسد المسيح السرِّي، الشاهدة بخلاصه في زمان حياتنا، فكلُّ من يتقدَّم لهذا السرِّ بإيمان واستعداد، فقد ثبَّت نفسه في الكرمة، ونال منها عصارة الحياة الأبدية وكلَّ مجد الكَرمَة نفسها، بل وصار واحدًا معها.

**٢. حفظ الوصايا والثبات في كلام الله**: قال الربُّ يسوع: «اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ» (يو ١٥: ٤)، وأيضًا قال: «اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي» (يو١٥:٩)، ثم يشرح كيف نثبت في محبته بقوله: «إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي» (يو ١٥: ١٠)، ويؤكِّد يسوع هذا الأمر؛ الذي هو حفظ الوصايا حين يقول: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ» (يو ١٤: ١٥). ممَّا سبق يَتضِّح جليًّا أنَّ الثبات في الكرمة يَتطلَّب أن نُحبَّ الربَّ من كلِّ القلب والفكر والقدرة والنفس، وبرهان هذه المحبة يظهر في حفظنا لوصاياه والتمسُّك بها، واللهْجِ

(٧) شرح إنجيل القديس يوحنا- للقديس كيرلس الكبير - مركز دراسات الآباء المجلد الثاني، ٢٠١٢، ص ٢٥٤.

فيها ليلًا ونهارًا. وعلينا أن ندرك أنَّنا حينما نحفظ الوصايا في قلوبنا ونحيا بها بأمانة، فهي أيضًا تقوم بسلطانها الإلهي لتعمل عملها في إعدادنا وتنقيتنا وتطهيرنا لنستحق أن نُدعَى أغصانًا مقدَّسة فاعلة في كرمة العليِّ.

**ختام:**

خلاصة القول أنَّ دعوة الله الأولى لإسرائيل للقيام بدور الكَرمَة المشتهاة والابن البكر، لم تُتمِّم قصدها بسبب عدم أمانة الكرمة الأولى، وفشلها في القيام بالدور المنوط بها؛ إلاَّ إنها مثَّلت الإرهاصة الأولى لمشروع الله الأزلي للإنسان في أن يحيا معه إلى الأبد. على أنَّ نجاح هذا المشروع، وهذه المشورة الإلهية؛ قد تحقَّق أخيرًا عندما اغتذى الإنسان من شجرة الحياة الجديدة، والكرمة الحقيقية غير المغروسة بيد إنسان، أعني بشخص ابن الله الوحيد يسوع المسيح، الذي حمل إلينا بشارة الخلاص، ومسرة الآب، بعدما قدَّم ذاته واشترانا لله بدمه. وهكذا وهبنا أن نصير أغصانًا حيَّة ثابتة في جسده السرِّي، أي الكنيسة، نغتذي من عصارة حُبِّه خلاصًا وغُفرانًا، إلى أن نشربه جديدًا معه في ملكوت أبيه.

**********

[الفردوس هو حب الله الذي فيه نعيم كل الخيرات، حيث اغتذى السعيد بولس الرسول بالغذاء الذي يفوق الطبيعة. وعندما ذاق من شجرة الحياة الموجودة هناك، صرخ قائلًا: إن الله قد أعدَّ لمحبيه ما لم تنظره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر. من هذه الشجرة مُنع آدم بتوسط مشورة الشيطان. وشجرة الحياة هي محبة الله التي خاب منها آدم، فلم يعد يرى فرحًا بعد ذلك، بل مكث يعمل ويشقى في أرض الشوك. والمحرومون من محبة الله – حتى ولو سلكوا بالعدل والبر – يأكلون بأعمالهم خبز العرق الذي أُمر بأكله الإنسان المخلوق أولًا بعد سقطته. وإلى أن نجد المحبة فعملنا هو في أرض الشوك، وفي وسط الشوك نزرع ونحصد ولو كان زرعنا زرع العدل (أو البر)، وسيظل الشوك يَخِزْنا كل حين ومهما تبرَّرنا فإننا بعرق وجهنا نعيش. أمَّا إذا وجدنا المحبة، فإننا سنأكل الخبز السمائي ونغتذي به دون عرق أو تعب. والخبز السمائي هو المسيح النازل من السماء والواهب الحياة للعالم، وهذا هو غذاء الملائكة].

**للقديس مار إسحق الجزء ٣، الميمر ٢٧ (في التوبة والمحبة ٢)**